جمالية التّناسب ودوره الدّلالي في التّماسك النّصي "القصص القرآني أنموذجا"

د. علي زواري أحمد*.

جامعة الشهيد حمّه لخضر الوادي. soufislam@gmail.com

الإرسال: 2020/11/07. **القبول**:2021/05/08. **النّشر**: 2021/06/06.

الملخّص:

لقد دار بحثنا حول موضوع جمالية التناسب ودوره في التماسك النصي من خلال القصص القرآني، وقد تطرقت فيه لمفهوم الجمالية والتماسك النصي، وعرفت التناسب، ثم عرجت على أشكال التناسب في القصص القرآني، والتي تمثلت في: تناسب القصة مع موضوع السورة وباقي القصص فيها، وتناسب حلقات القصة الواحدة في أكثر من سورة، الذي ركزت فيه على تناسب الموضوع العام للقصة من خلال كل السور، والتناسب في موطن ورود القصة في مختلف السور، والتناسب في تناول موضوع القصة في كل السور، والتناسُب بين بداية القصة ونهايتها، لنصل في الأخير إلى أنّ تلك العلاقات القائمة بين القصص القرآني يوجد بينها من مناسبات ما يضفي جمالية على النص القرآني، ويزيد في قوة إعجازه وروعة نظمه وحسن ترتيبه وقوة سبكه وتماسك نصه.

الكلمات المفاتيح: التناسب، الجمالية، القصص القرآني، التماسك النصي، القصص.

The proportionality and its role in textual coherence through the Quranic stories

Summary: Our research on the subject of proportionality and its role in textual coherence through the Quranic stories dealt with the definition of proportionality in terms of language and terminology. Then, it focused on the

*المؤلف المرسل.

forms of proportionality in the Quranic stories, which were: the story fits the story of Sura and the rest of the stories, More than Surat, which focused on the appropriateness of the general subject of the story through all the fence, and proportionality in the home of the story in the various verses, and proportion in dealing with the subject of the story in each fence, the proportion between the beginning and end of the story, Quranic stories are among the occasions that increase the glories G Koran and the splendor organized and well-arranged and strength alloyed and cohesion of the text

Key words: Proportionality; Quranic stories, scriptual coherence, stories.

1- مقدّمة:

من العلوم التي اهتم بها العلماء والدارسون في الدراسات القرآنية ما يسمى بعلم المناسبات، الذي يختص بدراسة العلاقات القائمة بين الآيات والسور القرآنية، وقد أفرده بعضهم بالتأليف، وخصص له آخرون فصولاً من كتبهم، ولم يكتفوا بالحديث عن علاقة الآية بما قبلها وما بعدها، أو العلاقات داخل الآية الواحدة، وإنّما كانوا يتتبعون الخيط الذي يربط آيات السورة من أولها إلى آخرها، ومحورها الرئيس، وعلاقة مطلعها بخاتمتها، واسمها بمحورها وتعقيباتها، ودراسة التناسب بين السورة والسورة التي تسبقها، وتلك التي تليها، بل والمناسبة بين السورة في أول المصحف ونظيرتها في آخره، ولم يزل العلماء يتساؤلون ويحاولون الإجابة عن تلك العلاقات الرابطة بين أجزاء النص القرآني، إلى أنّ غدا التناسب علمًا قائما بذاته، له أصوله وقواعده، وشرفه وأهميته، ولذا جاء هذا المقال بعنوان: "جمالية التناسب ودوره الدلالي في التماسك النصي، القصص القرآني أنموذجا".

وموضوع التناسب يعتبر من الموضوعات المهمة، وقد طرقته العديد من الأبحاث والدراسات السابقة والتي يمكن أن نحصرها فيما يلي:

- النوع الأول من الدراسات تحدث عنه في عمومه كموضوع من الموضوعات قرآنية، مثل ما هو في كتب علوم القرآن أو كالأبحاث التي تحدثت عن علم المناسبة عموما، أو التي تعرضت له في جانبه التطبيقي لكن في طيات الحديث عن معاني القرآن الكريم وتفسيره وإن لم يقصده في ذاته، مثل كتب التفسير المختلفة التي لا تخلو من الإشارات الرابطة بين معاني القرآن، وفي هذا الجانب هناك من خصّه بالكلام وقصده بالدراسة منهم الإمام إبراهيم بن عمر البقاعي

(المتوفى: 885هـ) في كتابه: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". وغيرها من الدراسات التي تماثلها كدراسة أبي جعفر الغرناطي والسيوطي.. ومن المحدثين عادل بن محمد أبي العلا، ومحمد بازمول، ومحمد عناية الله سبحاني وغيرهم.

ومثل هذه الدراسات تشترك مع دراستنا في عموم الحديث عن التناسب وتختلف معها في تحديد المادة المدروسة والهدف المقصود من الدراسة الذي هو التماسك النصي والبحث عن الجمالية التي أنتجها التناسب بين القصص القرآني، وعلى كل حال فتعتبر هذه الدراسات كمصادر أو مراجع يستفيد منها أي باحث في مجال التناسب وخاصة في الجانب النظري من الموضوع، أو في تحليل وبيان المعنى القرآني.

- والنوع الثاني من الدراسات هي التي خصّته بالبحث في مجال معين؛ كسورة من سور القرآن، أو جزء من أجزائه، أو في جزئية من جزئياته كالحديث عن الروابط اللغوية في النص القرآني المدروس، أو الحديث عن الفواصل أو القصص القرآني... ومن تلك الدراسات كدراسة الباحث طارق مصطفى محمد حميدة الموسومة بـ: "التناسب في سورة البقرة"، ودراسة الباحثة مقبولة علي مسلم الحصيني: "أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت"، و"المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها" للباحث أحمد محمد عطية المنيراوي.. وغيرها.

ومن الدراسات التي تتقاطع في جزء منها مع دراستنا - هذه - الدراسة التي قام بها كل من: د.زهراء خالد سعد الله العبيدي، و د.طلال يحيى ابراهيم الطوبجي، والمعنونة بـ: "التناسب القصصي في سورة البقرة، دراسة في هدي علم المناسبة" والتي نشرتها مجلة جامعة زاخو، المجلد: 1 (B) العدد:2، ص: 200 — 210، 2013.

فهي تشترك مع دراستنا كونها اختارت قصص سورة البقرة محلا للدراسة وتختلف معها كون دراستنا في عموم قصص القرآن الكريم، فهذه الدراسة تدرس التناسب بين قصص السورة فقط لإبراز وحدة سورة البقرة، و إظهار النظم الخاص لهذه السورة من حيث ترتيب قصصها، أما دراستنا فتدرس التناسب الحاصل بين أجزاء القصة الواحدة في القرآن كله، وبين أنواع القصص القرآني عموما لإبراز جمالية التناسب ودوره في إحداث التماسك بينها وكأنها خرزات في عقد.

كما أن هذه الدراسة قصدت بيان التناسب في ذاته من خلال النص القرآني المختار - وهو قصص سورة البقرة - ولذا تهدف للكشف عن علل اختيار طرائق النظم ترتيبا واتساقا، وبغرض البحث عن تسلسل القصص داخل السورة وبيان تناسباتها ضمن سياق السورة ونظمها الخاص وربط ذلك بموضوعاتها ومضامين واسمها ومقاصدها. وأما دراستنا فتكمن في كونها تعالج

موضوعا قرآنيا تشرك فيه دراستنا بين الدرس اللغوي القديم والدرس اللغوي الحديث، فأما القديم فمن حيث التناسب الذي هو من الموضوعات اللغوية القرآنية التي عالجها تراثنا العربي ضمن الدراسات القرآنية، وأما من حيث الحديث فهو يتعلق بموضوع لغوي يدخل ضمن لسانيات النص التي تعالج النصوص وفق المناهج الحديثة.

فهو يهدف لإحداث مقاربة نصية تتعلق بالتماسك النصي وفق ما يرمي إليه الدرس اللغوي الحديث، ولكن من خلال نص تراثي يحمل قداسة في تراثنا العربي الإسلامي، ألا وهو النص القرآني المعجز، وذلك لبيان مواطن التماسك في قصصه من جهة، ومن جهة ثانية البحث عن الجمالية المنبثقة على الدلالات التي أحدثها التناسب في بنيته النصية.

وعلى هذا فإنّ إشكالية بحثنا تدور حول إبراز جانب من جوانب التناسب، وهو التناسب في القصص القرآني، وبيان الجمالية التي أحدثها هذا التناسب بين تلك القصص وما تبعه من تماسك نصي جعلها لحمة واحدة تعالج قضايا دلالية مشتركة بأساليب مختلفة، وهذا يجعلنا نطرح العديد من التساؤلات التي تحتاج منّا إجابات من خلال ما سنعالجه، ومنها:

ما مفهوم الجمالية؟ وما المراد بالتماسك النصي؟ وما المقصود بالتناسب؟ وما أهميته الدلالية في التماسك النصي؟ وما قيمته الجمالية؟ وكيف تجلّى ذلك في القصص القرآني؟ وما هي المواطن التي يمكن الوقوف عندها من خلال قصص القرآن الكريم لبيان التناسب الحاصل فيها؟

ومن خلال هذا الإشكال وتلكم الأسئلة الفرعية المتفرعة عنه فإنّنا قسمنا البحث إلى مجموعة من العناصر التي تعالجه، والمتمثلة في:

مفهوم الجمالية.

تعريف التناسب.

مفهوم التماسك النصي.

أنواع التناسب في القصص القرآني.

ولمعالجة إشكالية البحث فقد اتبعنا المنهج الوصفي الذي اعتمدنا فيه على آلية الاستقراء لجمع المادة العلمية من النص القرآني وترتيبها لنقوم بعدها بتحليلها وفق العناصر التي رسمناها في الخطة.

وقبل البداية في معالجة هذه العناصر نقول بأن موضوعنا يدخل ضمن الدراسات اللغوية، ويحمل عنوانه مجموعة من المصطلحات المستعملة بكثرة في الدراسات اللغوية والأدبية، والتي منها: الجمالية، والتناسب، والتماسك النصي، ولذا أردنا الوقوف عندها لبيانها بالقدر

الذي نحتاجه في مقالنا هذا، حتى يتضح لنا المراد من الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه ومعالجة إشكاليته.

2. مفهوم الجمالية:

لفظ (الجَماليَّة) من حيث اللغة، هو اسم مؤنَّث مفرد منسوب إلى جَمال، ومنه دراسة جماليَّة: تُعنى بالقيمة والعناصر التي تكسب العملَ جمالاً فنيًّا، وهو مصدر صناعيّ من جَمال: ما يخصّ النَّواحي الجماليّة[1].

ومن حيث الاصطلاح فالجمالية مصطلح يستعمل في الفكر المعاصر، للدلالة على تخصص من تخصصات العلوم الإنسانية التي تُعْنَى بدراسة الجمال من حيث هو مفهوم في الوجود، ومن حيث هو تجربة فنية في الحياة الإنسانية.

فالجمالية تبحث عن الجمال الإبداعي داخل النص وما يميزه ويعطيه قيمته الفنية التي تجعل منه إبداعا وأدبا، وهي ترادف عند بعض الدارسين المحدثين مصطلح الجمالي، والشكلي، والفني.

ونحن في بحثنا هذا نتعامل مع النص القرآني المعجز الذي فاق إعجازه إبداع البشر قاطبة، وذلك لبيان الجمالية التي تظهر من خلال التناسب الحاصل بين القصص القرآني، والتي أدت إلى التماسك النصي داخله، لتعطينا لوحة جمالية مبدعة في كيفية رسم القرآن الكريم لها رغم تعددها وتنوعها وانتشارها في مختلف سوره، إلا أنّها متكاملة ومنسجمة ومتماسكة داخل النص الجزئي (السورة) والنص الكلي (القرآن الكريم).

3. تعريف التناسب

التناسب في اللغة مفرد، مصدر تناسبَ[2]، ويعني المناسبة[3]، ويقصد به التماثل والتشاكل، فالمناسبة هي: المشاكلة[4]، والمقاربة[5]. ولذا يقال: فلان يناسب فلانا أي يقرب منه[6] ويشاكله، ومنه النسيب وهو القريب، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس[7].

أما من حيث الاصطلاح فإنّ مصطلح "التناسب" و "المناسبة" يستعملان في علم تفسير القرآن لبيان الترابط بين آيات القرآن الكريم وسوره، يقول البقاعي: «علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه»[8]. كما عُرِف التناسب بأنّه: «وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة، أو بين السورة والسورة»[9].

ونحن في مقالنا سنقوم ببيان أوجه الترابط وجماليته من خلال القصص القرآني ودوره في تماسك النص القرآني، ولكن قبل ذلك نقف مع مفهوم التماسك النصي.

4. مفهوم التماسك النصي

التماسك في الفرنسية (**ecnatsisnoc**)، وفي الانجليزية[10] (**ycnetsisnoc**)، وفي اللغة العربية من مادة (م س ك)، مصدر تماسك، ويدور على معاني متقاربة، منها: الاحتباس[11]. والاعتدال[12]. والارتباط[13]. أي بمعنى تمالك[14].

وفي الاصطلاح هو «تعلّق عناصر النصّ بعضها ببعض، بوساطة أدواتٍ شكلية أو علاقاتٍ دلالية، تسهم في الربط بين عناصرِ النص الداخلية، والنصّ والبيئة المحيطة من ناحية أخرى، لتكون في النهاية رسالة يتلقّاها متلقٍّ فيفهمها ويتفاعل معها سلبًا وإيجابًا»[15].

فالتماسك عامل من عوامل ترابط النص ورسوخه، ومن ثم تتضح أهميته في تحقيق استقرار النص، بمعنى عدم تشتيت الدلالات المكونة للنص[16].

5. أنواع التناسب في القصص القرآني.

لا يمكن أن نتحدث عن كل أنواع التناسب في القصص القرآني، وذلك لأنّ صفحات المقال المحدودة لا تسمح بذلك، لذا سوف نتحدث عن بعض أنواع التناسب في القصص القرآني مع بيان جماليته ودوره في تماسك النص، وفي هذا السياق لا بأس أن نشير إلى أنّ التناسب ينقسم إلى قسمين كبيرين هما: التناسب اللفظي والتناسب المعنوي، ويندرج تحتهما العديد من الأنواع، ومن جملة ذلك ما يلي:

5. 1 - تناسب القصة مع موضوع السورة وباقي القصص فيها

لقد قص الله ـ تعالى ـ في القرآن الكريم قصصا للأنبياء والمرسلين وما دار بينهم وبين أقوامهم، وما حدث من وقائع وأحداث في زمانهم، قصها علينا بأساليب متنوعة يتحقق بها إعجاز القرآن الكريم، ذلك أنّ أسلوب القصص القرآني له خصائص يمتاز بها عن سائر الأساليب، فله في المعنى واللفظ ألوان من التوجيه، وفنون من الإيحاء والتعليم، كما أنّ له من الجدة التي لا تبلى، والروعة التي لا تزول، وله مع كل ذلك تناسب وترابط فيما بينه وبين ما ورد فيه من سياق وسور، حيث تجده يخدم الوحدة الموضوعية لكل سورة ذكر فيها، كما يخدم المقصد العام لها وللقرآن الكريم كله.

فدراسة القصص القرآني في ضوء السياق تكشف بما لا يدع مجالا للشك أنّ كلّ قصة أو حلقة من حلقاتها قد ذُكرت في مكانِها المناسب، وأنّ معنى السورة وموضوعها ومقصودها يتحقَّق بذكر تلك القصة أو تلك الحلقة منها، فضلا عن مناسبة أسلوب العرض لسياق السورة، فهي من جهة تتناسب وموضوع السورة والآيات التي قبلها وبعدها، ومن جهة أخرى تتناسب مع تلك القصة عموما في القرآن الكريم.

ومن ثَم يعدّ هذا التناسب والترابط من أهم أسباب التماسك النصي في السورة، فإذا ما جئنا .مثلا .إلى سورة القصص التي ذكرت فيها قصة موسى بالتفصيل في أولها، ثمّ ذكرت فيها قصة قارون في ختامها، نجد بين تلك القصص وموضوع السورة تناسقاً كبيرا وتناسبا وترابطا في المعنى والمبنى والمضمون والسبك والصياغة في روعة من الجمالية.

فـ «ما نراه في سورة القصص من تركيز على تصوير أحداث ولادة موسى، والإطالة في عرض هذه الحلقة من القصة، لأنّها تبرز قدرة الله في حمايته ورعايته منذ الولادة، وتؤكّد أيضا على أنّ الشرّ لا جذور له، وأنّه يحمل بذور فنائه، مهما طال أمد بقائه، أو اتّخذ الوسائل التي تؤمّن له الاستمرار والبقاء، وهذا المعنى يحتاجه المؤمنون في مكة وهم يواجهون بطش قريش وصلفها، فيزيدهم إيمانا وثقة في الانتصار على الباطل مهما طال أمده، لأنّ الله معهم يرعاهم ويحميهم كما حمى موسى ورعاه من بطش فرعون»[17]. قال الله تعالى مبيّنا هذا القانون الإلهي[18]: ﴿**طسم تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ [القصص: 1 .6].

إذا فـ «هذه السورة مكية، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان. نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، نزلت تقرر أنّ هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله وأنّ هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان.

فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فلا بنفعه شيء أصلا . ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء، وقصة قارون مع قومه .قوم موسى .في الختام»[19].

فبين الله تعالى نهاية طغيان الملك والقوة أمام قوة الله، فتنتقل الآيات لتبين حقيقة أخرى وغرض آخر وهو نهاية طغيان الكفر، ثُمَّ ينتقل بنا إلى نهاية طغيان المال، وذلك من خلال قصة قارون مع قومه، وكل هذا يتناسب مع موضوع السورة، وتتناسب القصتان لاستكمال المشهد لأنّ أساس الفساد هما السلطان والمال وهذا ما اجتمع لسادة قريش.

فالقصة: «الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان، قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر، وفي مواجهتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية. وقد علا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها شيعا، واستضعف بني إسرائيل، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو على حذر منهم، وهو قابض على أعناقهم.

ولكن قوة فرعون وجبروته وحذره ويقظته لا تغني عنه شيئا، بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير المجرد من كل قوة وحيلة، وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية، وتدفع عنه السوء، وتعمي عنه العيون، وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا، فتدفع به إلى حجره، وتدخل به عليه عرينه، بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه، مكفوف الأذى عنه، يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه!.

والقصة الثانية تعرض قيمة المال ومعها قيمة العلم، المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته وهم يعلمون أنّه أوتي من المال ما إنّ مفاتحه لتعيي العصبة من الرجال الأقوياء، والعلم الذي يعتز به قارون، ويحسب أنّه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال، ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه، ولا تستخفهم زينته بل يتطلعون إلى ثواب الله، ويعلمون أنّه خير وأبقى. ثم تتدخل يد الله فتخسف به وبداره الأرض، لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه وتتدخل تدخلا مباشرا سافرا كما تدخلت في أمر فرعون، فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين»[20].

هذا فيما يخص النظرة الكلية والإجمالية في تناسب وتناسق القصتين مع غرض السورة وموضوعها ومناسبتها، وأيضا مع بعضهما البعض، فلنقف مع أجزاء من القصتين حتى نتبيّن كيف تناسبت تلك الأجزاء مع الهدف العام والموضوع الكلي للسورة كذلك. فلنقف .مثلا .مع سورة القصص حيث «بُدئت بأمر موسى ونصرته وقوله: ﴿**فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ**﴾ وخروجه من وطنه، وختمت بأمر النبي صلى الله عليه وسلم بألا يكون ظهيرا للكافرين»[21].

ونجد في إرجاع موسى لأمه تسلية لها لكي لا تحزن عليه، أيضا نجد في السورة تسلية لرسول الله عن إخراجه من مكة ووعده بالعود إليها، لقوله تعالى في أول السورة عن موسى .عليه السلام -: ﴿**وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [القصص: 7] ، ثم في نهاية السورة وخارج إطار القصة قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ**﴾ [القصص: 85] . وهكذا عاد موسى إلى أمّه وعاد رسول الله .صلى الله عليه وسلم . إلى أمّ القرى.

ثمّ نجد في السياق نفسه مقاطع أخرى ذكرت أثناء عرض القصتين، وكلها تتناسب وتتناسق مع الموضوع العام للسورة، بإحقاق الحق، وإبطال الباطل، ونصرة المؤمنين وهلاك الكافرين والمشركين والمفسدين، وأنّ العاقبة لعباد الله المؤمنين والمتقين. وهذا كله نجده متناسب بين واقع النبي الكريم .عليه الصلاة والسلام .الذي نزلت فيه السورة، ولأجله كان موضوعها، وواقع موسى .عليه الصلاة والسلام .الذي حكته القصة.

ومن هذه الآيات قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ [القصص: 5]، فهنا يتحدث عن موسى وأصحابه، ولكن لقوة التناسب بين الواقعين كأنه يتحدث عن واقع المسلمين في مكة، فحيث كان موسى ومن معه من المستضعفين يضطهدهم فرعون ومن معه، فمنّ الله عليهم بنصره ونجّاهم من هذا الاستضعاف، كذلك كان أصحاب رسول الله .عليه الصلاة والسلام .من المستضعفين في مكة، كما حكى القرآن عن ذلك قائلا : ﴿**إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[النساء: 98] فمنّ الله عليهم وأعتقهم من ربقة الذل والاستضعاف، ورفع الله صوت بلال المستضعف فوق رأس الجميع.

وقوله تعالى: ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾ [القصص: 6] وكأنّه يتحدث عن يوم بدر حيث نهاية صناديد الشرك ومن معهم من جنود ورميهم في البئر (قليب بدر)، حيث وقف رسول الله .صلى الله عليه وسلم .على رؤوسهم يخاطبهم، فيما كانوا منه يحذرون ويخافون ولكن وقعوا فيه، كما رمى الله فرعون في البحر وأغرقه، ووقف موسى وأصحابه على جثته هامدة وقد وقع في الهلاك على يديّ موسى الذي كان فرعون يخافه ويحذر أن يزول ملكه على يديه.

وقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [القصص: 83] فكما مكّن الله لموسى ومن معه واهلك الله الطغاة والمفسدين من قومه مثل فرعون وقارون، كذلك مكّن الله للمؤمنين من أصحاب النبي .عليه الصلاة والسلام .وأهلك الله الطغاة والمفسدين من قومهم من أمثال أبي لهب وأبي جهل وغيرهم.

وبهذا فسورة الْقَصَصِ في طياتها أوجدت ترابطا وتناسباً بين وحدة موضوعها وبين القصص التي وردت فيها، وبهذا يكون موضوع السّورة مترابطاً في غاية من الجمالية مع قصصها، ومتناسباً معها بما يجعل من داخل السورة وحدة متماسكة ومتكاملة في مبناها ومعناها.

2. 5 - تناسب حلقات القصة الواحدة في أكثر من سورة

بعد أن وقفنا على جمالية تناسب القصة مع موضوع السورة وباقي القصص فيها وما ترتب عنه من تماسك نصي، نقف في هذا العنصر على تناسب حلقات القصة الواحدة في أكثر من سورة، وقد اخترنا قصة آدم .عليه السلام .حتى ننوع في القصص المختارة بين المطالب لتكون الدراسة أشمل مع القصص القرآني.

وفي البداية نشير إلى السور التي وردت فيها قصة آدم .عليه السلام .حتى نستطيع أن نصل إلى موضوع كل قصة في كل سورة من السور، ونرى بعدها كيف تناسبت وتناسقت وترابطت القصة في كل السور، وشكلت صورة موحدة للقصة عموما، بحيث تكون كل حلقة منها في سورة هي مكملة لباقي الحلقات في السور الأخرى، وهذه السور هي: البقرة بداية من الآية 30 حتى الآية 39 . فهي أول السور التي وردت فيها قصة آدم .عليه الصلاة والسلام .ثم الأعراف من الآية 11 إلى الآية 25. ثم الحجر من الآية 26 إلى الآية 44. ثم الإسراء من الآية 61 إلى الآية 65 . ثم طه من الآية 115 إلى الآية 127 . ثم سورة ص الآيات من الآية 71 إلى الآية 85.

بعد أن عرفنا السور التي وردت فيها قصة آدم .عليه السلام، وحتى نجلي هذا النوع من التناسب في حلقات القصة الواحدة في أكثر من سورة نتكلم عنه في العناصر الآتية:

5. 2 - 1 .الموضوع العام للقصة من خلال كل السور

قصة آدم تعالج قضية الخلق والاستخلاف عن طريق إعلام الله .تعالى .الملائكة بقضائه أنّه سيخلق السلالة البشرية ويكرمها، وهي التي ستعمر الأرض وتكون مسئولة عن الخلافة فيها، وبيان قدرة الله تعالى وكيف كانت مراحل خلق آدم .عليه السلام .ثم أمر الله .سبحانه وتعالى .إبليس بالسجود لآدم وموقف إبليس من ذلك، ومحاكمة إبليس والحكم عليه وما كان منه عقابه إثر ذلك، ووصية الله لآدم وزوجه قبيل إدخالهما الجنة، ثم إسكانهما الجنة وبيان ما أباحه الله وما حرمه عليهما، وكيف كانت مكايد إبليس لهما في الجنة، ومحاكمة الله لآدم وزوجه على معصيتهما والحكم عليهما بالهبوط إلى الأرض مع التوبة عليه، وبيان عداوة إبليس الأبدية لآدم وذريته لقيام الساعة ومصير من أطاع الله ومن عصاه. فهذا هو الموضوع العام الذي جاءت لتجسده قصة آدم .عليه الصلاة والسلام .من بداية الخلق إلى منتهاها.

5. 2 - 2 .التناسب في موطن ورود القصة في مختلف السور

والآن نقف مع بعض أوجه التناسب في القصة عبر السور التي وردت فيها، ومن ذلك السياق الذي وردت فيه، أو الموطن الذي ذكرت فيه وعلاقته بالآيات قبله، فنرى أنّ القصة تتحدث عن بداية الخلق ومنتهاه في مجملها، نجدها دائماً في القرآن تأتي بعد ذكر الإحياء بعد الإماتة والحشر والموازين والقيامة والجزاء والجنة والنار وغيرها من مواضيع المرتبطة بالمنتهى.

جاء في البحر المحيط: «لمّا نبه تعالى على منتهى الخلق وهو الحشر يوم القيامة إلى ما يستقرون فيه، نبههم على مبدأ أصلهم آدم، وما جرى لعدوه إبليس من المحاورة مع الله تعالى. وتقدم شيء من هذه القصة في أوائل البقرة عقب ذكر الإماتة والإحياء والرجوع إليه تعالى. وفي الأعراف بعد ذكر يوم القيامة، وذكر الموازين فيه. وفي الكهف بعد ذكر الحشر، وكذا في سورة ص بعد ذكر ما أعد من الجنة والنار لخلقه. فحيث ذكر منتهى هذا الخلق ذكر مبدأهم وقصته مع عدوه إبليس ليحذرهم من كيده، ولينظروا ما جرى له معه حتى أخرجه من الجنة مقر السعادة والراحة، إلى الأرض مقر التكليف والتعب، فيتحرزوا من كيده»[22].

2. 5 - 3. التناسب في تناول موضوع القصة في كل السور

من خلال ما ذكرنا في سور القصة والموضوع العام لها، نجد أنّه في كل سورة من السور التي ذكرت فيها قصة آدم إلا وتتناول قضية ما، وشيئًا ما من الموضوع العام للقصة مما يتناسب وموضوع السورة، مُشَكِّلة في الأخير الوجه العام للقصة وبيان ذلك كالتالي:

ففي سورة البقرة نجد أنّ القصة جاءت لتتحدث عن قضية الاستخلاف وتكريم آدم عليه السلام، ولذا نجدها وردت بعد قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾[البقرة: 29]، فهذه الآية تتكلم عن تكريم الله تعالى للإنسان بأن خلقه وهيّأ له ما في الأرض جميعا ثم استخلفه فيها، وذكر بعدها في عدة آيات استخلاف آدم و تعليمه الأسماء وفي كل هذا تكريم لآدم .عليه السلام ..

ولما نأتي لسورة الأعراف نجد أنّ القصة تتحدث عن العتاب واللوم الذي وجهه الله تعالى لبني آدم وتحذيرهم من الشيطان الذي رفض السجود لأبيهم آدم، ولذا وردت بعد قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**﴾ [الأعراف: 10]، فنلاحظ أنّ الفرق واضح بين ما ابتدأت به قصة آدم في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: 29]، عما بدأت به في الأعراف، حيث فيها من العتاب لبني آدم وتحذيرهم من الشيطان ومكائده، ولذلك كانت خاتمة الآية التي ذكرت بعدها القصة: (قليلاً ما تشكرون) ثم بدأت القصة، وفي هذا إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في أول السورة: ﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: 2] ، فضرب الله في قصة آدم من بدايتها المثل لأول من عصى الله وخالف أوامره، فقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ**

صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11].

وفي سورة الحجر نجد أنّ القصة تحدثنا عن حتمية الحشر وعداوة إبليس الأبدية لبني آدم، وقد جاءت بعد الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: 25]. ذكر الله .سبحانه و تعالى .قصة بدأ الخلق، وهى خلق الإنسان بعد هذه الآية التي تدل على الحشر فتكلم عن بدء الخلق الذي هو أدل دليل على الحشر، وبعد ذلك ذكر قصة معصية إبليس وعداوته للإنسان ولم يذكر فيما يتعلق بآدم، فقصة إبليس هنا لتحذير الجنس البشري من عداوة إبليس الأبدية.

ولما نأتي لسورة الإسراء نجد أنّ القصة تتحدث عن جزء آخر من موضوع القصة غير ما تحدثت سابقاتها من السور، وهو أسباب الطغيان ونتائجه الوخيمة التي تعود على صاحبها بالهلاك، ولذا نجدها وردت بعد قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾ [الإسراء: 60]، فالله .سبحانه وتعالى. يذكرنا ما وقع من الطغيان مع رؤية الآيات في أول هذا الكون من إبليس الذي هو أعلم الخلق بآيات الله وعظمته، ثم ممن اتبعه من ذرية آدم بعد تحقق عداوته في مخالفة ربه المحسن إليه، وفيها أيضا أنّ من أغلب أسباب الطغيان هو الحسد الذي حمل إبليس على ما فعل، وهذا ظاهر من إعلانه سبب عدم السجود بعد هذه الآية مباشرة: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا**﴾ [الإسراء: 61].

ونجد أنّ قصة آدم في سورة طه تحدثنا عن الإعلام بحلم الله سبحانه وتعالى والتلطف بعباده، وضرورة التوبة منهم لتسعهم رحمته سبحانه وتعالى، فجاءت القصة بعد الآية الكريمة: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ [طه: 115].

فنلاحظ أنّ المقصود من سورة طه هو إعلام بحلم الله والتلطف بعباده والقدرة على المعرض فذكر هنا في سورة طه ما فعله آدم بلفظ المعصية مع التصريح بالنسيان لبيان التحذير من الوقوع في المنهي عنه وإرشاداً لمن غلب عليه ونسي إلى المبادرة بالندم وتعاطي أسباب التوبة ليتوب الله عليه كما فعل مع سيدنا آدم.

ولما نأتي لقصة آدم في سورة ص نجدها تحدثنا عن قانون الجزاء يوم الدين الذي بدأ مع قضية آدم وإبليس، فجاءت بعد الآيات التالية التي توحي بأنّ فيه قانونا ربانيا عادلا يوم القيامة ينال فيه كل واحد جزاءه ولا يظلم منه شيئا، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ**

عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَى إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة ص: 67 — 70].

وهكذا عندما ذكر لهم الرسول .صلى الله عليه وسلم .ما سيحدث من جزاء وعقاب في يوم القيامة وكانوا يكذبونه ويعجبون من قوله، أخبرهم بأنّ أول قصة خلق آدم وقصته مع إبليس كان بها هذا النبأ، وهو قانون الجزاء يوم الدين، حيث إنّ إبليس طلب من ربه أن يمهله إلى يوم يُبعث الخلائق لعلمه بعدالة قانون الله وأنّه لابد وأن يقف أمامه يوم القيامة لذا اعترف وأقر به عندما طلب أن يؤخره ليومه فقال: ﴿**قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾ [سورة ص: 79 — 81].

وهكذا كانت أسباب ورود قصة آدم في هذه السور، حيث تناسبت وترابطت كل حلقة منها مع الآيات التي ارتبطت بها، وتناسقت مع سياقها وموضوع سورتها، وقد اختلف الغرض في كل سورة منها لتؤدي غرضها المنوط بها داخل السورة الواحدة، وفي مجمل القصة عبر السور جميعا. فنراها تتناسب من حيث الترتيب في الغرض، ومن حيث إعطاء النظرة الإجمالية لملخص الغرض من القصة، فهي تنطلق من الاستخلاف والتكريم لآدم .عليه السلام .الذي يناسبه بعد ذلك التحذير من الشيطان الذي رفض السجود لآدم، مع العتاب واللوم الذي يكون بعد الإخلال بشروط الاستخلاف وإهمال حقيقة بالتكريم، لتستوقفنا على حتمية الحشر وعداوة إبليس الأبدية لبني آدم، لنعي حقيقة التحذير والعتاب، الذي يناسبه ذكر أسباب الطغيان ونتائجه الوخيمة التي تعود على صاحبها بالهلاك، ثم يفتح لنا ربنا باب الرحمة ليُعلِمنا بحلمه ولطفه بعباده ودعوتهم للتوبة، وفي نهاية الأغراض نكون مع قانون الجزاء يوم الدين الذي بدأ مع قضية آدم وإبليس. وهكذا تتناسب هذه الأغراض جميعا مع قصة آدم التي تحدثنا عن المبدأ والمنتهى، فمن بدء الخلق والتكريم الذي يمثل بداية الحياة إلى الحديث عن يوم الدين الذي يمثل الموت وهو نهاية الحياة.

3. 5 - التناسُب بين بداية القصة ونهايتها

المتابع والدارس لقصص القرآن الكريم يجد أنّ هنالك اتِّساقا وتناسبا عاما ينتظم القصة في السورة الواحدة أو في مختلف السور، حيث تأتي القصة القرآنية في مقام ملائم تمامًا، فيتناسق أولها مع ما قبله، ونهايتها مع ما بعدها، كما تتناسق بدايتها مع نهايتها، وأولها مع آخرها، وتتناسق كلها مع الجو العام للسورة، والتصور الإجمالي للقصة. ويكون ما يسبق القصة وما يعقبها بمثابة الإطار الذي يحيط باللوحة، ويعطيها أبعادها وحدودها المناسبة، وسنلاحظ هذا الاتِّساق والتناسب في بدايات القصة القرآنية ونهايتها، مع ما سنقف عليه من نماذج.

ونظرا لكثرة قصص القرآن الكريم وتنوُّعها وتعدُّدها، فقد اخترنا هنا قصصا أخرى غير ما تعرضنا له في العناصر السابقة ممَّا يدعم الفكرةَ الكلية التي قام عليها البحث، وهي فكرة جمالية التناسب في القصص القرآني ودوره في التماسك النصي.

فالنموذج الأول الذي نقف عنده هو قصة إبراهيم .عليه الصلاة والسلام .لنتتبع القصة مجملة عبر سور القرآن من بدايتها إلى نهايتها، فنجد بدايتها من سورة الأنعام، وهي الانطلاق في تحقيق الهدف الذي من أجله أرسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ونهايتها في سورة الحج، وهو تحقيق هذا الهدف والوصول إليه، فبدَأت بالبحث عن الرب، وانتهت بالإيمان به، والدعوة إليه. وبذلك تكون عندنا الصورة المجملة للقصة، حيث نجد أول مشهد للقصة تصويره وهو صبي يقلِّب طرْفَه في ملكوت السموات والأرض، ولكن يسبق ذلك التمهيد له بقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: 73].

فهذا المدخل لقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام يتناسب وبدايتها، حيث نجده يركز على بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الإلوهية وحقيقة العبودية، وما بينهما من ارتباطات، وهو بداية القصة وبداية دعوة إبراهيم .عليه الصلاة والسلام .فما قبل البداية يمهِّد السبيلَ لها، ويحقق الإحاطة بالمعنى الإيماني لقصة إبراهيم .عليه الصلاة والسلام .وأنّ ما سيظهر منه في محاجَّته قومَه ليس معناه نسيانَ الحقيقة الكبرى، وهي أنّ الله .تعالى . هو خالق السموات والأرض، وأنّه الجدير بالعبادة وحده.

ولذا فهذه الآية تمهيد لما سيحدث من إبراهيم .عليه الصلاة والسلام .من تأمُّل السموات والأرض، وإعجابه بكوكبها وقمرها وشمسها، وأنّها أعظم من أصنام أبيه وقومه، فهي بشهادتهم أَوْلَى بالعبادة من تلك الأصنام، فلعل تلك الرؤوس تترفَّع عن حمأة الطين، لتنظر إلى أعلى وتتدبَّر خلق السموات والأرض، وتتحرَّر من تلك النظرة الضيّقة المَقيتة، ولعلهم يخطون خطوات متدرِّجة للوصول بهم إلى الإيمان بالله .عزَّ وجلّ .

وهكذا تكون بداية القصة تنطلق من تلك الحقيقة في الآية السابقة فيقول ربنا .عز وجل .: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ [الأنعام: 74، 75]. إلى قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأنعام: 83].

فهذه بداية القصة كانت تصور بداية إبراهيم في الدعوة للتوحيد وعبادة الله تعالى. وحين نأتي لنهاية قصته نجدها قد انتهت بأذان إبراهيم في الناس بالحج كما هو في سورة الحج، وهذا تحقيق لدعوته التي أعلنها من قبل، فتناسبت هذه النهاية أتَمَّ المناسبة مع ما تلاها بعد ذلك، فإذا كان قد دعاهم إلى المجيء إلى مكة، فليس حضورهم هدفًا بحدِّ ذاته، ولكنه لأداء عبادة خاصة، لها أسلوبها، وطريقتها، وأداؤها الذي به فقط تحقق الاستجابة لدعاء إبراهيم .عليه السلام .

لقد انتهتْ قصة إبراهيم بالدعوة إلى الحج، فناسب ذِكر المشوقات التي تحمس المؤمنين لأداء هذا النسك، وهي شهود منافع وذكر اسم الله طوال تلك الأيام المعلومات، والأكل والإطعام من بهيمة الأنعام، وقضاء التفث، والوفاء بالنذر، والطواف بالبيت العتيق، وبيان أجر من يعظِّم حرُمات الله، والأمر باجتناب الأوثان واجتناب قول الزور .قال تعالى: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ**﴾ [الحج: 27 – 30].

وهكذا رأينا بداية القصة وكيف تناسبت مع ما قبلها، وأيضا نهايتها وكيف تناسبت مع ما بعدها ، كذلك نجد أنّ تلك البداية كانت مناسبة أتم المناسبة لهذه النهاية، فلقد كانت بداية قصة إبراهيم في سورة الأنعام دعوة لإسقاط الأوثان والشرك، بتحطيمها في النفوس، ودحض مزاعم الكفار ورد شبهاتهم وافتراءاتهم، ثم إسقاطها على أرض الواقع بتكسيرها، ومن هذا جاءت النهاية بالدعوة إلى الحج وبيان مناسكه، واجتناب الأوثان، وربطها بالرجس وقول الزور، الذي يُضادُّ الحق الصريح والحجة البالغة، وليس ثمَّة زور أعظم من الافتراء على الله تعالى والإشراك به.

ولذا لا تتحوَّل القصة إلى مجرد خبر فحسب، ولكنها تعطي إشارة البدء بتنفيذ دعوة إبراهيم .عليه الصلاة والسلام .وتحويلها إلى أرض الواقع، وحث المؤمنين على الاستجابة لها، بذكر المنافع المتحققة لهم في دنياهم وأخراهم.

والنموذج الثاني الذي نقف معه هو القصة في سورة واحدة، وكيف تناسبت بدايتها وتناسقت مع نهايتها، ولعل من قصص القرآن التي يتجلَّى فيها الارتباط والتناسب والتناسق

بين بداية القصة ونهايتها، هي قصة يوسف .عليه الصلاة والسلام .حيث تبدأ بداية مثيرة للتشويق، وهي بداية هادئة تضع اللبنة الأولى في القصة وتنتظر أحداث القصة بعد ذلك لتزيح الستار عن حقيقتها، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ [يوسف: 4].

فهكذا هي البداية بهذه الرؤيا التي تشبه اللغز المحيّر بما تضمَّنه من رمز خفي على يوسف .عليه الصلاة والسلام .لكن الأب عرف دلالته واستبشر به، ثم توالت أحداث الحياة فيما بعد لتحيله من مجرَّد رؤيا إلى أمر واقعي. وخلال تلك الأحداث ينتقل الرسول الكريم في أوضاع متقلبة ومتقابلة، طردا وتشريدا، وإغواء وسجنا، وفقرا وغنى.

ففي مشهد البداية ينشأ حوارٌ بين يوسفَ وأبيه .عليهما الصلاة والسلام .وحظّ الأب أكبرُ من حظِّ الابن في هذا الحوار، فالابن ذَكَر لأبيه تلك الرؤيا ولم يعقِّب عليه، وظل يستمع بإنصات إلى ما يقوله والده عن هذه الرؤيا العجيبة، أمَّا الأب فكان وقوفه على خبر تلك الرؤيا داعيًا إلى التعامل معها بطول نفَس، والتأكيد على أهمية أن يبقى خبرُ هذه الرؤيا سرّا من الأسرار، بين الأب وابنه ولا يذيعه على إخوته، ولا يبوح به لأحد منهم مهما كان الأمر: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: 5]، مبينًا مغبَّة مخالفة هذا الأمر، حيث يناصبونه العداء، وينافسونه على هذا الفضل ﴿ف**يَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا**﴾ [يوسف: 5] ، وتنبيهه إلى عنصر الشر الذي سوف يحرِّكهم ضده ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ [يوسف: 5].

وفي إطار هذه التحذيرات يؤكِّد على دلالة الفضل العظيم التي تبشر به: ﴿**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [يوسف: 6].

بعد هذه البداية تمضي القصة في تنقُّلات عجيبة، وأوضاع مختلفة، حتى يوقفنا القرآن على مشهد النهاية، الذي يتناسب ويتناسق مع البداية ويكون مثابة حل العقدة، وهي نهاية سعيدة مفرحة، تغمرها بهجة اللقاء بعد طول فراق، وتخضلُّ العيون بدموع الفرح. وفي هذه النهاية نلاحظ كثرة الأحداث وتتابعها في إيقاع سريع، مؤذن بقرب الخاتمة، حيث يدخل الإخوة ومعهم أبوهم وأمُّهم على يوسف في ملكه وسلطانه، فيدعوهم للاستقرار الآمِن في مصر، ويرفع أبويه على العرش احتفاء وتكريما، وبعد ذلك يخرُّ الجميع له سُجَّدا، فيرى أمام عينيه المشهد نفسَه الذي رآه في المنام، لقد تحقَّقت الرؤيا بكل تفصيلاتها، فيخاطب أباه: ﴿**يَا أَبَتِ هَذَا**

تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. [يوسف: 100]

وهكذا تتناسق البداية والنهاية في هذه القصة القرآنية، وتظهر بجلاء جمالية التناسب في التماسك النصي القوي للقصة، وخاصة في ختم هذه القصة بهذا المشهد الاحتفالي الرائع حين جُمع الشمل، ممَّا لا يمكن أن يبلغه إلا هذا التعبيرُ القرآني المعجز والمختوم بقول يوسف عليه السلام: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ [يوسف: 101].

6. الخاتمة

بعد وقوفنا على أهم ما يمكن أن يقف عنده الباحث في مثل هذا الموضوع، فإنّنا نخرج بالنتائج التالية:

- مما يسترعي اهتمام الدارس لكتاب الله ويشد انتباهه، تلك العلاقات القائمة بين أجزائه وسوره وآياته وموضوعاته وقصصه، وما يوجد بينها من مناسبات تزيد من إعجازه وروعة نظمه وحسن ترتيبه وقوة سبكه.

- التناسب يولد قدرة على إدراك اتساق المعاني، فيساعد على معرفة الأغراض من الكلام، وييسير فهم كلام الله تعالى، في نسق موزون منضبط متكامل يخدم بعضه بعضا.

- للقصة القرآنية مدخل طبيعي إلى نفوس الناس وعقولهم وقلوبهم، وعصرنا هذا هو خير شاهد على ما للقصة من سلطان في الحياة، وعند الوقوف على القصة القرآنية نرى لها منهجا فريدا لا يشبه أيّ أسلوب من الأساليب المعهودة للقصة.

- القصص القرآني في ضوء السياق يكشف بما لا يدع مجالا للشك أنّ كلّ قصة أو حلقة من حلقاتها قد ذُكرت في مكانِها المناسب، وأنّ معنى السورة وموضوعها ومقصودها يتحقَّق بذكر تلك القصة أو تلك الحلقة منها، وأنّ للقصص القرآني اتِّساقا وتناسبا عاما ينتظم القصة في السورة الواحدة أو في مختلف السور.

- لقد اشتمل القرآن الكريم على العديد من قصص الأنبياء هم: آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى ... وقد تناسبت مع بعضها من حيث الترتيب والبدايات والنهايات والتعقيبات، ومع موضوع السور التي ذكرت فيها ومضمونها وهدفها، محدثة تماسكا نصيا قويا.

وفي الأخير نرجو أن نكون قد سُدِدْنا وقاربنا فيما طرحنا، والله من وراء القصد فهو مولانا ونعم النصير.

7- مصادر البحث ومراجعه:

- أحمد عمر أبو شوفة، المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة، تح: عبد السلام هارون، دار الكتب الوطنية - ليبيا، دط، عام النشر: 2003 .
- أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، دار الجيل -بيروت، ط1، سنة: 1411هـ - 1991م، ج 5.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1، سنة: 1429 هـ - 2008م.
- أنس بن محمود بن يوسف فجال: الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني، نادي الأحساء الأدبي، السعودية، ط1، سنة: 1434هـ - 2013م.
- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1 ، 1422 هـ - 2001م، ج 5.
- بدر الدين الزركشي ، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1376 هـ - 1957 م، ج 1.
- جميل صليبا (ت: 1976م): المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب – بيروت، دط، سنة: 1414هـ - 1994م.
- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. دط، سنة: 1394هـ - 1974م. ج 3.
- عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، ط1، سنة: 1422 هـ - 2001 م.
- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني أبو بكر (المتوفى: 471هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، سنة: 1422هـ - 2001م.
- علي إبراهيم سعود عجين، التناسب في صحيح الإمام البخاري، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، 2010م.
- سيد قطب، في ظلال القرآن ، دار الشروق - بيروت- القاهرة ، ط17، سنة : 1412 هـ ، ج 5.
- صبحي إبراهيم الفقي، علم لغة النص بين النظرية التطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء، القاهرة، ط1، سنة: 2000م.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، د ط، سنة: 1992.
- فطومة العيد لحمادي، التماسك النصي بين النظرية والتطبيق سورة الحجر أنموذجا، مذكرة ماجستير، جامعة محمد خيضر، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم الأدب العربي، إشراف الدكتور محمد خان، بسكرة، الجزائر، 2004.
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار): المعجم الوسيط، دار الدعوة، د.ط.

- محمد بن علي التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تق: وإشراف، ومر: رفيق العجم الترجمة الأجنبية: جورج زيناني ، تح: علي دحروج ، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي ، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط1 ، سنة: 1996م، ج 2.
- محمد فاروق النبهان. المدخل إلى علوم القرآن الكريم، دار عالم القرآن - حلب. ط1، سنة: 1426 هـ - 2005م.
- محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر — بيروت، ط1.
- مرتضى الزَّبيدي أبو الفيض: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج4.
- مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، ط2، سنة: 1418هـ - 1997م.
- مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط2، سنة: 1421هـ - 2000م.
- نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: 573هـ): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تح: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، ط1، سنة: 1420هـ - 1999م.
- وهبة بن مصطفى الزحيلي: التفسير الوسيط، دار الفكر - دمشق، ط1، سنة: 1422هـ، ج 3.

8- الهوامش والإحالات:

1 - ينظر، أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط1، 1429 هـ - 2008م، ج 1 ص 398.

2 - المرجع نفسه، ج 3 ص 2199.

3 - نشوان بن سعيد الحميرى اليمني(المتوفى: 573هـ): شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم تح: حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني - يوسف محمد عبد الله ، دار الفكر المعاصر (بيروت)، دار الفكر (دمشق) ، ط1، 1420 هـ - 1999 م، ج 10 ص 659.

4 - مرتضى الزَّبيدي أبو الفيض: تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مجموعة من المحققين، دار الهداية، ج4 ص 265.

5 - جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن . تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط سنة 1394هـ/ 1974م، ج3 ص 371.

6 - محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر — بيروت، ط1، ص: 755، والزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج 4 ص 265.

7 - بدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1376 هـ - 1957 م، ج 1ص 35.

8 - علي إبراهيم سعود عجين: التناسب في صحيح الإمام البخاري، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، 2010م، ص: 5.

9 - مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط2 سنة: 1421هـ - 2000م، ص:96.

10 - جميل صليبا (ت: 1976م): المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب — بيروت، دط، سنة: 1414هـ - 1994م، ج1 ص 340.

11 - ينظر - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون ، دار الجيل -بيروت، ط1، سنة: 1411هـ - 1991م، ج5 ص 320.

12 - ينظر - محمد بن منظور: لسان العرب ، ج10 ص486.

13 - ينظر - مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار): المعجم الوسيط، دار الدعوة، د.ط، د، ج 2 ص 869.

14 - ينظر - الحميرى: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ج 9 ص 6303.

15 - أنس بن محمود بن يوسف فجال: الإحالة وأثرها في تماسك النص في القصص القرآني، نادي الأحساء الأدبي، السعودية، ط1، سنة: 1434هـ - 2013م، ص:57.

16 - ينظر - صبحي إبراهيم الفقي: علم لغة النص، بين النظرية التطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء، القاهرة، ط1، سنة: 2000م، ج1 ص74.

17 - عبد السلام أحمد الراغب: وظيفة الصورة الفنية في القرآن، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، ط1، سنة: 1422 هـ - 2001 م ، ص: 278.

18 - وهبة بن مصطفى الزحيلي: التفسير الوسيط، دار الفكر - دمشق، ط1، سنة: 1422هـ، ج3 ص1901.

19 - سيد قطب، في ظلال القرآن: دار الشروق - بيروت- القاهرة ، ط10، سنة: 1412 هـ، ج5 ص2673 .

20 - المرجع نفسه، ج5 ص 2674 .

21 - جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج3 ص 379 . وبدر الدين الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1 ص 185 . مناع القطان ، مباحث في علوم القرآن ، ص99.

22 - أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط1، سنة: 1422 هـ - 2001م، ج5 ص440.